

مَظَاهِرُ التَّعْرِيبِ

الأستاذ محمد بن تاووت

أما إبدال تلك الهاء « المخفي » كما يسميها
الفرس ، قافا ، فذلك ما كان مطردا في العربية ، كما
كان مطردا أيضا إبدالها جيما ، كما في كلمة « برنام »
التي أصبحت برنامج ، وقد عقد سيبويه في كتابه
فصلا سماه « باب اطراد الإبدال في الفارسية » فذكر
من هذا كوسه وموزة وكربق وقربق ، إلى غير ذلك من
الكلمات ، التي يكتفي فيها بهذا الحذاء العربي في
نهايتها ، أعني الجيم أو القاف .

وطبعا انهم لا يقبلون الحروف التي لا
يستعملونها ولا يلقون اجراسها ، فالحرف P
ينقلب باء أو فاء ، والحرف G ينقلب جيما غالبا ،
والحرف V ينقلب واوا في الغالب كذلك .

وبعد هذا لابد من انسجام في الهيئة والامتداد ،
فتبدل بعض الحركات بغيرها أو تحذف بعض
الحروف التي تتعدى الكلمة طورها في العربية ،
ان لم تحذف منها تلك الحروف ، في الغالب أيضا ،
ولم يتحموا هذا للاضطراب ، بل أخذوا كلمة « جلاب »
وهي ماء الورد .

وهكذا كانت مشكلة التعريب في القديم ،
مسألة التعليم بمدولنا ، ولم تكن مشكلة التعريب كما
فهمنا ، فالقضية تهذيب لفظي بوسائل في غاية
البساطة .

لما ترجمت العلوم إلى العربية ، اتخذ فيها ما
كان مبهودا من ذي قبل ، فقييل ، فلسفة في

كثيرا ما قلنا ان التعريب كان منصبا على
الانفاظ ، بينما التعريب الآن منصب على المعاني

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان العربي ، كان اذا جلب كلمة أو جلبت
إليه ، يستغني بالباسها لباسه العربي ولو بغطاء
الراس مثلا أو الحذاء

جاءته كلمة « كروان » بمعنى انقافلة ، فقال
فيها قروان ، وغطى رأسها بالالف واللام فأصبحت
القروان أو القيروان ، وبذلك صارت الكلمة تتمتع
بكل الحقوق التي تتمتع بها الكلمة العربية في
إعرابها ، فلا تمنع من الصرف لعلة المعجمة ، لأنها
قد ارتفعت عنها بهذا العقال ، الذي هو هنا الالف
واللام ، كما حدث في الهند والصين والروم والترك .

سمع النبي عليه الصلاة والسلام ، من سلمان
الفارسي ، كلمة خندق فاستفسره عن معناها ، وهي
اسم مفعول ، من كندن الفارسي بمعنى الحفر ،
فكانت كنده ، وعربت بأن أبدلت الهاء التي لا تنطق
قافا ، فصارت خندق ، فتقبلها النبي ولم يأنف من
استعمالها بل اشتق منها خندقوا ، فسميت
الغزوة بغزوة الخندق .

ولعل الكاف كانت في النطق تميل إلى الخاء ،
كما هي في اليونانية والعبرية ، وهي ما تسمى عند
مقرئي المغرب بالكاف الموسوس ، ولهذا نطقت خندق .

كل ما فى طاقتها من قوة فهل العربية قادرة على هذا ؟

نعم ، هي قادرة . لو مكنها من قدرتها ، ونفسها بطول الانفاس ، ان لم نكتبه فيها .

والعربية ، الى جانب احتمالها للالفاظ ، تحتل كذلك ما نطلبه من معان فيها ، ان كلماتها لا تنفذ . بما فيها من اشتقاق وخيالها بحمد الله خيال خصب ، يسعها بالتشبيه وما ينشأ عنه من استعارات ، ويسعها بهذا التداعي الذى تتولد منه الكنايات ، ولا يبخل عليها استعمالها العتيق ، بهذه المجازات المرسله ، ثم النحت .

لقد تقدمت فى الاشتقاق ، كلمة « خندقوا » من الخندق ، ولنا ان نزيد على هذه الصيغة كل الصيغ المعروفة فى المادة العربية نفسها ، فتسعنا فى الاعمال بأنواعها وأوضاعها ، وتسعنا فى الصفات بأنواعها كذلك وأوضاعها ، وتسعنا فى أسماء الزمان والمكان والمصادر على اختلافها ، كما تسعنا الكلمة العربية ، عند الاحتياج الى نلها من اولاد واحفاد

هذا الاشتقاق الطليق ، لا نجده فى غير العربية ونجد امثلة من البواقي فى غيرها ، مثل ما نجد فى الفارسية والتركية والفرنسية ، ازاء البطاطا ، حيث شبهتها جميعا بالتفاح الذى اضافته الى الارض ، فقالت الفارسية « سيب زمين » والتركية « ير الماسي » والفرنسية *Pomme de terre*

وسمت الاسبانية ملابس العمال ، ذات القطعة الواحدة « Mono » أي قرد ، كما سمت الآلة التى ترفع بها جوانب السيارة باسم « Gato » أي الهر ، لانها تنشب مخلبها فى جانب السيارة ولم تأنف ان تسمى بالبق « Chinche » المسمرات التى تثبت الورق ونحوه .

وقالت الانجليزية للقطار السائر تحت الارض *Underground* أي تحت الارض ، مجازا مرسلًا ، كما استعمل هذا المجاز المرسل فى نحو « سندويتش » « Sandwich » و« كرافات » « Cravate » وكان الاصل فى هذين انهما اسمان لرجلين استعملهما .

وأمن الالمان ، كما نمن نحن فى الاشياء لنستخرج اسماءها ، بدقة وطبق الاصل ، فسموا « الهيدروجين » باسم *Wasserstoff*

Philosophia وفيلسوف *Philosophos* وقيل ، فاطيفورية *Kategoria* والسفسطة *Sofistikae* وايساغوجي *Isagoge* وغير ذلك من الكلمات اليونانية الاصل ، ولم تجد العربية الفسيحة الصدر فى هذا حرجا او احراجا ، وقد وجدنا الابهرى من رجال القرن السابع يؤلف فى المنطق رسالته « ايساغوجي »

Taos	كما عربوا الطوس من
Zone	والزنار من
Kassitoros	والقزدير من
Ibrizón	والابريز من
Diáblos	وابليس من
Thériaka	والترياق من
Chartés	والقرطاس من
Genos	والجنس من
Esthlós	والانسر من
Gramaatika	والاجرومية من
Asfaltos	والزفت من
Karyofyllon	والقرنفل من
Gypsos	والجبص من
Staflinos	واصفليانة من
Sotolos	والاسطول من
Astron-lambauo	واسطرلاب من
Drachmé	والدرهم من
Kados	والقادوس من
Atlas	والاطلس من

ولا شك ان كلمات من هذه عرفتها الجاهلية ، كالقرنفل والدرهم وابليس ، ولكن معظمها لم يعرف الا عند الترجمة ، ولا يعزب عن البال ، ان كلمة الاجرومية ، ليست منسوبة الى ابن آجروم المغربي ، كما يتوهم ، فان القضية اتفاقية ، وكثيرا ما يقع هذا الاتفاق فى اللغات .

هذه امثلة بسيطة ، اذا كانت الحياة على نمط من البساطة ، اما الآن فقد تعقدت الحياة وتعاقبت المخترعات وازدحمت فى هذه الدنيا المخلوقات ، فأصبحت وكأنها دار تسكنها عائلة واحدة ، لابد من التعارف التام فيها والاتحاد فى مدلولاتها ومزاولة كل فرد منها ما يزاوله الآخر

فصارت مسؤولية اللغة شاقة ومتطلباتها كثيرة ، وعليها ان تقوم بأعباء ذلك وعليها ان تستنفد

يتصل بالوصف ، وتسجيل خطوات اللغة . وموقفها من طبيعة الأشياء ، فكان منها بعض اللمحات عن موضوعنا هذا ، مثل « باب الحكاية التي لا تغير فيها الاسماء عن حالها » فالتركيب اذن معروف بين كلمتين عند النحاة ، قديما وحديثا .

اما النحت بهذا الاسم فقليلا ما يتعرض له النحويون . ومن هؤلاء الخضري ، اذ يقول فيه « وهو ان يختصر من كلمتين فكثر ، كلمة واحدة ، ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الاولى بتمامها بالاستقراء ، خلافا لبعضهم ، ولا الاخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات » .

وبهذا نعم كلمة النحت في تركيب الكلمة من كلمتين وفي اختصار كلمة من كلمتين أو أكثر ، والنوعان معا موجودان في العربية ، وفي جل اللغات غيرها ، وان كان بعض منها يميل الى التركيب أكثر مما يميل الى الاختصار ، على عكس العربية . كما سنرى :

تقول العربية « السملة » و « الحمدة » و « السبحة » و « الحوقلة » و « السمعة » ، من قولنا : « بسم الله » و « الحمد لله » و « سبحان الله » ولا حول ولا قوة الا بالله » و « السلام عليكم » ، كما تقول « الهيلة » و « الحيلة » . ويزعم ابن فارس ان كل ما زاد على ثلاثة ففيه نحت وتقول « التحييد » كما تقول غير هذا من جمل عديدة ، ونشتق من ذلك الافعال وغيرها مما يشتق من كل مصدر ، وهذا ايضا مما تمتاز به العربية وتفضل على غيرها ، فان باقي اللغات ، تستعمل هذا النحت في حالة معينة ، تستوجب منها هذه العملية ، وتقف عند هذا الحد ولا تتعداه غالبا فهي في ذلك تلتزم ما التزم - غالبا - في اسماء الافعال والاصوات من العربية ، وهذا الباب ايضا ، مما توسعت فيه العربية ، بخلاف غيرها .

مثلا ، نجد الالمانية تمعن في حقائق الأشياء ، وتحاول ، مثلنا ، ما أمكنتها الحيلة ، ان تدخل المعاني الى لغتها ولا تدخل اليها الالفاظ ، سواء منها ما كان مفردا وما كان مركبا ، فمن المفردات ، نجد كلمة التاريخ ، غير مستعملة عندها ، كما هي في باقي اللغات الاوربية ، بل اشتقت لها من مادتها الالمانية كلمة سرد Geschichte ولكن المؤرخ Historiker والوصف hietorisch فهي اذن لم تبق حرة طليقة وكذا الامر في المركبات ،

فركبوا الاسم من كلمتين Stoff اي جوهر ، و Wasser اي ماء ، فصار الاسم هكذا ، الجوهر المائي ، او جوهر الماء (كما في الفارسية والتركية مولد الماء)

وقد كلفهم هذا الاعتزاز كثيرا من العنت . اضطروا معه ، الى تركيب اسم لسمى واحد من كلمتين أو كلمات ، في بعض الاحيان ، فلا يكتفون غالبا بالنحت ، الذي نجده في جل اللغات ، ومنها العربية .

وقبل ان ناتي بأمثلة من العربية لهذا النحت نرى ان نقف وقفة قصيرة ، عند أصله اللغوي . .

فالنحت أصله ، النشر والقر والقطع في الصلب من المواد ، كالخشب والحجر ونحوهما . وقد يكون هذا من كلمتين ، كما ينحت النجار ، خشبتين ويجعلهما قطعة واحدة ، كما يكون من قطعة واحدة ، وهو الأصل ، كالنحيتة التي تنحت من جذم شجرة ، على هيئة الجب للنحل ، وهذه النحيتة هي المعروفة عندنا باسم الجباح ، ومن هذا قول الاعشى :

الست منتبيا عن نحت أثلتنا

ولست ضائرها ما اطت الابل

اما النحت في الحجر ، فمعه قوله تعالى « وتنتحون من الجبال بيوتا فريين »

هذا ما يتعلق ، بأصل المادة من اللغة .

واما معنى النحت في الاصطلاح ، فهو صوغ كلمة من كلمتين فكثر .

ويدخل في هذا التعريف ، تركيب كلمة من كلمتين ، مما تناوله النحاة ، في عدة ابواب من كتبهم . وفي الالفة نجد التعرض للتركيب المزجي ، في باب العلم ، وباب ما لا ينصرف ، وباب النسب ، كما نجد الإشارة الى المركبات عامة في ابواب غير هذه .

وجملة القول ان النحو تعرض للمركبات من الاسماء الا ان تعرضه هذا كان لجرد الاحكام النحوية والصرفية الواجب تطبيقها عليها في الجملة .

نعم ان « الكتاب » لسبويه لم يقف عند تطبيق الاحكام ، بل وقف عدة وقفات ، كان منها ما

فهي في التصريف والنحو، وضربنا لذلك أمثلة باللغات الأجنبية ، وهي تعم الجميع .

ومن تلك الأمثلة ، ادركنا انه لا حدود فاصلة تامة بين النوعين المذكورين ، فقد تدعو الضرورة ، فلا تجد من يسعها الا وسائل الترف ، وقد لا تكون هناك ضرورة ، ومع هذا تستعمل وسائلها . وبذلك ينشأ المترادف ، كما ينشأ بالترف والمغرب وتعدد اللهجات . ومن المفيد أن تأتي ببعض الأمثلة التي هي في العربية مقابلة لتلك التي ذكرناها من غيرها .

فمن الاضافة وجدنا قوس قزح واكسير الحياة ، وجب العزيز في مصر ، وجب الملوك في المغرب ، ودار الصنعة ، وبيت المال ، ودار الثقافة بالمغرب . ومن النسب : اليماني والهندي في الفصحى ، وفي معناه الجديد في عاميتنا ، كالكومية والوزانية فيها ، والمهلبية بالشرق والمنصورية بالمغرب ومن الاشتقاق ، كالنشيرة ، بمعنى ما يعرف الآن باسم « الفاتورة » ويصح ان نضع فيها « النفالة » أيضا ، وكلتاها للمفعولية والاخيرة « النفولة » . ومن الاستعارة كيد الدهر ، ورأس الكلام ، ومرآة الحياة ، وشباب الزمان ، ولحن السعادة ، ودمدمة الشقاوة ، و « طعام الائم » و « العزيز الكريم » تهكما . ومن المجاز المرسل ، شرب الكأس ، (ولا بأس بالجرسى Jersey) والتكلم مع الدار ، وجعل الاصابع في الاذن وعصر الخمر ، والبرتقال للفاكهة المعروفة ، ومن الكناية اهل الحجر والمدر والوبر ، وبيت الماء ، واهل الدار ، وعريض القفا ، للحمار ، كما في حديث من فهم الخيط الابيض والاسود على الحقيقة ، وريق النحل ، والتكفف وخفة اليد ... اما التشبيه ، على ما هو عليه ، فلا وجود له ، فيما نعلم بالعربية ، ولكن خليل التركي استعمله كثيرا ، في مختصره المعروف ، وقلما يخلو منه باب من ابوابه ، وهذه امثلة قليلة من ذلك : « بكاعزى » في اليمين ، « في كسبل الله » بالنذر « من كقاعد » في الجهاد ، « في كافريقية » بالنكاح « لا بكاعتراض » في الخيار منه ، « من كابل » في الصداق ، « عند كامها » في نكاح التفويض ، « علي كجدار » في وليمة البناء بالعروس ، « ولو بكتقويم » في الطلاق ، « وان بكاحرام » في الارتجاع ، و « بكمشيئها » في الظهار ، و « وفي كالثلاثة » - الايام ، وفي التطوع او غيره ان خرج - « لكرباط » فهذا مثالان وردا في رفع زوجة المفقود ، و« نبذ بكدباء »

وتقدم انها سمت « الهيدروجين » باسم اصل الماء او جوهر الماء ، هكذا Wasserstoff ماء Wasser ومادة Stoff مركبين وهي في هذا قد استعانت بأصل الكلمة اليونانية hudór أي ماء ، و gen أي اصل من مصدر genna-ein فحلت مشكلتها ووقفت عند هذا الحد بالرغم من أن لها في لغتها روافد عديدة ، حيث انها تحتوي على عدة لهجات تغنيها عن غيرها غالبا .

ومهما يكن ، فاننا بصدد العربية ، وموقفها من عملية النحت الذي عرفه ابن فارس بقوله « تؤخذ كلمتان وتنحت منها كلمة آخذة منهما جميعا » فقد رأينا انها تجمع بين الطريقتين فيه ، والقدامى حاولوا احصاء المنحوت في العربية ، فوقف بعضهم عند بضعة عشر من امثلته ، وآخرون لم يتعدوا او لم يصابوا بها الى المائة .

غير ان ابن فارس جرى بعملية النحت اشواطاً قارب بها نحو الألف ، حيث يرى أن أكثر الرباعي والخماسي منحوت من كلمتين .

والواقع ان هذا العدد لا يعيننا بقدر ما يمكننا من الحرية في عملية النحت ، الذي أصبحت الحياة المعقدة تاج علينا فيه ، وأصبحت الاجناس البشرية ، تتقارب فيما بينها وتكون لها مجتمعات على مستوى الدول عامة او على مستوى جماعة منها او على فكرة من الافكار ، بعد المخترعات العديدة ، التي قد تتطلب مئات الاشياء وآلاف الأدوات ، وكل ذلك لا بد من تسميته مركبا بعد ان كان مسمى مفككا او على انفراد اجزائه ، فكان الاتوموبيل والتيليفون والتلفزيون ثم التلفزيون والتيلون ، هذه الاشياء تعد من أبسط ما واجهنا به النحت ، كما واجهنا بالديموقراطية والديكتاتورية والنازية ونحوها ، وكانت اليونسكو والمخترعات الكيماوية مما وجدت لها حلا في اللغات ، فكيف بنا الآن أمام المخترعات الفضائية التي تتألف من مئات الاشياء وآلافها ؟

وعلى كل حال فاننا من استعراضنا للوسائل التي تستعملها العربية في تعبيرها ، وجدنا منها ما استعمل ترفا ، كالتشبيه والمجاز عموما وكالكناية ، وما استعمل بداعي الحاجة ، كالاضافة والنسب والاشتقاق الذي يطبق على هذه جميعا ، كما يطبق على غيرها فيما سنرى وعلى العموم فقد دخلت الاولى في منطقة تجميل الكلام ، وهي « فن البلاغة » ، ودخلت الباقية في ضروريات الكلام ،

في الطعام البياح ، وهو كثير جدا . ويكلف الشراح تأويلا يدعونه بحذف النعوت والواقع ، ان الصنيع التركي ، هو الذي شجع هذا التركي العظيم على استعماله ، المذكور ، وهو الذي جعل شوقي التركي يقول :

ودخلت في ليلين فرحك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

فهذا التشبيه « كالمنور » هو المفعول به على الحقيقة ، كما ان ما قام مقامه ، في قوله : « ما يشبه الاحلام » هو الفاعل في البيت :

يا جارة الوادي طربت وعادني
« ما يشبه الاحلام » من ذكراك

وكذلك نجد لشوقي هذا الصنيع في نحو قوله :

ولا ينبيك عن خلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فقد جعل الفاعل هنا ، المشبه به أداة التشبيه ، ولا شك انه نظر في ذلك الى قوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » .

فالفاعل في الواقع المشبه به أداة التشبيه « مثل » اذ هي في المعنى لا تستقل بنفسها ، وان كانت في الصناعة فاعلا بنفسها ، مما اهلها في التركيب العربي ، لما لم تؤهل له كاف التشبيه .

ولكن غير شوقي و خليل ، ان احتاج الى هذا التشبيه ، احتال عليه ، فقال : « ذهب الاميل » و « لجين الماء » و « حمار الشيخ » ونحو ذلك ، مما اضيف فيه المشبه الى المشبه ، وقد استعمله جدا ، ابن خفاجة ، زيادة على الصورتين الاوليين خصوصا في قصيدة له مطلعها :

يا رب ليل بته
وكانه من وصف شعرك

ومن الوسائل التي تتوسع بها اللغات في دلالاتها ، وسيلة التعميم والتخصيص ، فالخاص يستعمل في المعنى العام والعام يستعمل في المعنى الخاص .

وقد تنبه الاصوليون وعلى رأسهم الشافعي الى هذا في النصوص الشرعية بصفة خاصة ، الا انهم توسعوا فيه ، حيث كان قصدهم مناط الاحكام ، ولم

يكن مناط الدلالات ، بمعنى انهم اقرؤا بعض العمومات في دلالاتها اللغوية وان خصصوها في احكامها الفقهية ، فجاءتها هذه الخصوصية بنحو الاستثناء الذي اجاز فيه ابو حنيفة وغيره ان يتأخر عن المستثنى منه بمدة السنوات ، او نحو الصفات التي تقصر الاحكام على موصوفاتها ، وهكذا مما يطول الكلام فيه ، وحسبنا ان نجد له نماذج في باب اليمين بمختصر خليل عند قوله « وخصمت نية الحالف وقيدت » الى آخر الباب وفيه ايضا تعميم للخصوص والعام الذي اريد به الخصوص وهو الغالب .

ثم كان انبلاغيون والمناطقة يعالجون هذا النوع من التوسع ، فالبلغيون حينما امعنوا في المجازات المرسله وجدوا من نماذج ما يتصل بهذا المجاز ، لدرجة ان نشأ الخلاف بين الاصوليين فيه ، هل هو جميعا من قبيل المجاز هذا ؟ والمناطقة نظروا اليه وهو يقوم بمهمة الدلالة اللغوية ، فكان تناولهم فقهاء لغويا في الصميم ، كما نجد في السلم اذ يقول :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمننا وما لزم
فهو التزام ان بعقل انتم

وقد توسع فقه اللغة الحديث في هذه الدلالات وسلط عليها الاستقراء التاريخي والتطور الاجتماعي والجنسي وهي على كل حال خاضعة لهذا الحصر المنطقي .

ومهما يكن فالعربية عرفت في الجاهلية هذه النماذج التي تتراوح بين التخصيص والتعميم ، وتوسع فيها الاسلام بالشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة والوضوء والكفر والايمان والشرك والجهد والتكبير والتحميد والركوع والسجود وغير هذه من مئات الكلمات التي جددت دلالاتها في الدين الجديد ، كلها من هذا القبيل .

وقد الف الراغب الاصفهاني كتابه القيم « مفردات غريب القرآن » فأرجع هذه المفردات الى عموماتها او خصوصاتها في اصل الاستعمال اللغوي ، الذي لم يقطع الاستعمال الجديد في الاسلام صلاته بالقديم فيها .

فهذه الصلاة والزكاة والطهارة ، نجدها في آية واحدة تمد يدها الى عمومها فتقول « خذ من اموالهم

صدقة تطهرهم وتركهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » .

والكفر نجده يستعمل في معناه من الستر ، فعم الزراع لسترهم البدور ، ولهذا وردت الآية « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » أي الزراع ، ومن هذا الستر تكفير السيئات الذي ورد منه في القرآن عشرات من الآيات ، مثل « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » ومثل « ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا » ومن العجيب ان نجد هذا الستر في الكلمة باللغات الأوروبية ، في مثل Cover الانجليزي و Cubrir الإسباني ونحو ذلك في اللغات الآخذة من اللاتينية كالإيطالية والرومانية وغيرهما .

ومن الكلمات التي صارت تنجح الى التخصص كلمة الانتقاد ، فهي كذلك في العربية وكذلك اختها Critic في غيرها وهكذا العربية استفادت من التخصص في عصرنا ، كما نجد ذلك في تسمياتها الطائرة والدبابة والقوامة والعمامة والمدمرة والمدفع والحافلة والشاحنة والجرار والجراف والسيارة والدراجة والاسعاف والامن والنظام والاستقرار والمخبر والساعي والنجدة والانقاذ والامين والشوكة والسكينة ، وغير هذه مما يجد باطراد مستمر ، وقد يشتق من بعض هذه ، كالطيار والمطار ، كما اشتق من المطبعة الطباعة وغيرها .

فهذه كلها معان جديدة ولدتها أم التخصص لهذه العربية ، ولا أفهم مطلقا من يقولون ان دلالات الالفاظ في العربية لم يطرأ عليها تغيير فهذه القولة تسيء الى العربية ولا تشيد بفضلها .

بل ان التطور في الدلالة ، حاصل حتى في هذا التخصص . وهذه الكلمة نفسها ، وقد جاءت عفوا في عبارتنا تطورت في مدلولها عما كانت عليه بالامس ، فكلمة « المتخصص » الآن لها مدلول لم يكن يعرف على ما هو عليه عندنا ، فهذا متخصص في فقه اللغة العام وهذا في فقه اللغة الخاص ، بالمقارنات او الاشتقاقات او اثارياخيات او ما الى ذلك من نوع الدراسات اللغوية وهذا متخصص في امراض الكلى وآخر في لين العظام وآخر في الجهاز الهضمي او البولي او السعمي او التنفسي او ما الى ذلك من الاجهزة الكثيرة ، زيادة على التخصص في الإنسان والعيون ، مما اصبح مستقلا بنفسه تمام الاستقلال ، وسيأتي يوم يتخصص فيه طبيب الإنسان بالفك الاعلى ، وآخر بالفك الاسفل ، وطبيب العيون ، بالعين اليمنى وآخر بالعين اليسرى ، وطبيب الآن كذلك .

نعود الى هذا العام الذي خصص في غير العربية ، لنقارن بين طبيعة المتخصص في العربية والمتخصص في غيرها فكلمة Avion في الإسبانية وغيرها ، وكلمة Aviación فيها وفي غيرها ، تقابلان ما تخصص في العربية بالطائرة والمطار ، بضم الميم ، كما سئرى .

وهنا تقف غير العربية ، فليس فيها طيار مشتق من Aviar بل فيها Piloto ونحوها ، بما لا علاقة لها بمادة الطيران ، بل هو من Pilotear العام في الجو والبحر والارض ، وان كان قد اشتق له فيما مضى Aviador في الإسبانية ، ونحوها ، و Aviator في الإنجليزية كذلك ، الا ان الاستعمال الآن جنح الى المعروف بكونه يعم القائد والمرشد في السماء والارض والبحار ، وقد بدأت العربية تجاري عولاء في هذا الانحراف عن المادة الاصلية ، فصارت تسمي الطيار ، ربان الطائرة او ملاحها . ولا لزوم لهذه المجارة ، خصوصا وانها تستبدل بالكلمة الواحدة ، وهي الطيار ، كلمتين ، وهما ربان الطائرة او ملاحها ، ، زيادة على ان العربية لها فضل السبق في خلق كلمة طيار للأدبي ، وقد مضى عليها اربعة عشر قرنا ، منذ لقب بها الشهيد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه .

نكتفي بهذا المثال ، مما هو في غير العربية من العام المخصص ، ونوجه الى مقابله ، الخاص المعم .

فمن ذلك كلمة الرائد ، فقد اشتق هذا من الورد الى الماء خاصة ، ثم تعمم باللاتيان الى كل مطلوب ، وكان الرائد الذي يتقدم قومه في السفر ليهديهم الطريق ، ومنه الرائد لا يكذب قومه ، بل صار الورد عاما في كل آت مادي او معنوي حقيقي او مجازي ، مثل ورد فلان وورد الخبر علينا وورد الماء والتيار الكهربائي او الضوء ان اردنا .

ومن ذلك كلمة الاستنباط ، فقد كانت خاصة بعمل النبط ، وهو استخراجهم للمياه ، الذي مهروا فيه ، كالفيلاليين فيما مضى عندنا ، ثم صار كل استخراج للمياه يدعى استنباطا ، ولو لم يكن المستخرج نبطيا . ثم زاد التعميم في كل استخراج للمياه وغيرها ثم تعدى هذا الى المعنويات ، ولازمها حتى اصبح او كاد يتخصص بها فيقع له ما سيقع لرواد الفضاء ، فيطلق عليهم رواد بدون هذا القيد .

ومن ذلك كلمة ماهية التي دخلت الى العربية من « ماه » القمر في الفارسية ، وهي بمعنى المرتب

الشهري ، ثم أصبحت تطلق على كل مرتب ، شهريا
كان أم غير ذلك .

وتظيره كلمة مشهرة التي دخلت الفارسية من
العربية بمعنى المرتب الشهري ثم صارت تطلق على
كل مرتب شهريا كان أم غير شهري .

ومن ذلك كلمة كفل ، وقد جاءت الي عفوا ،
فوجدت أصلها خاصا بالكساء الذي يوضع على ظهر
البعير فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل البعير
ومؤخره على عجزه ، فالاكفال غير الاحلاس ، كما في
الامثال ، ثم قيل تكفل الحمار ، اذا حلق ثوبا على
ظهره وركبه ، ثم اطلق على كل اشتغال مادي ، ثم
معنوي كالنفقة والقيام بالاشياء عامة ومضاعفة
الجزاء ، وصارت الكلمة تجنح الى المعنويات فيقال
تكفل فلان بالامر ، اذا تعهد القيام به .

وهكذا تتعمم الكلمات في مدلولاتها التي كانت
خاصة ، بالكثرة التي جعلت اللغويين ، يدعون أن
الكلمات في نشأتها كانت خاصة ، وما تعممت الا
اخيرا ، حيث ارتقى الانسان ، فأدرك الكليات بعد
ادراكه للجزئيات ، وهو ما أدركه المناطقة عموما ،
فقال السلم مثلا :

من أوليات مشاهدات
مجربات متواترات

الى آخر اليقينيات التي نشأت من المشاهدات
هذه امثلة من العربية ، اما غيرها ، فكلمة
Arrive الانجليزية ، كان معناها الوصول الى
River أي النهر ، ثم صار معناها الوصول مطلقا
وكلمة Salary كان معناها النقود التي تصرف
لشراء الملح من كلمة Sal ثم صار معناها ما
يدفع للاجير او الموظف عامة وصارت تجنح الى
المرتب الشهري وهكذا نجد في عدد من اللغات
يصبح الخاص عاما ثم تدور الدائرة فيصبح هذا العام
خاصا في معنى جديد غالبا واللغة كائن حي نشيط

ومن هذه الوسائل التي توسلت بها العربية في
توسعها او يمكن أن تتوسل بها الاشتقاق من الزمان
والمكان فالزمان ، كالصباح والغداة والمساء والعشاء
والضحى والقائلة والليل

فمن الصباح اشتقت العربية اصبح ونحوه ،
كما قال الافوه الاودي :

أصبحت من بعد لون واحد
وهو لونان وفي ذاك اعتبار
ومن المساء ، كذلك : مما نجده في قول أبي
تمام :

وما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخرا
ومن الغداة كما في قول الفند الزماني :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان
ومن الضحى ، قول عمر بن الخطاب : « اضحوا
عباد الله » اي صلوا بالضحى
ومن العشاء ، قول الحطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد
فمعنى تعشو تراها ليلا وتقصدها فيه عشاء .
ومن القائلة ، الحديث « قیلوا فان
الشیاطین لا تقیل » .
ومن الليل ، قول ابن حبوس الفاسي :

والكل في علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم ان ليلا

وقالوا كذلك : اليل فلان اذا دخل في الليل ،
والليل الكروان ، لتفريده ليلا ، ولهذا اسمه
بالانجليزية Nightingale ففيها هذا الاشتقاق من
الليل كذلك ، كما اشتقت من الصباح Morning
واشتقت الاسبانية من الصبح Madrugar فالاول
من Morn والثاني من Madruga التي يرادفها
Alba وهو اول ضوء للنهار ، كما اشتقت الانجليزية
من المساء ايضا Evening فهو مشتق من Eve
اي انتصاف النهار ، ونحوه موجود في الاسبانية ،
وان كانت قد جنحت به الى معنى ما تؤديه « ظل »
في العربية ، وهو تطور في الدلالة ، من القيد الى
الاطلاق ، او من التخصيص الى التعميم ، كما حدث
في العربية ، للانفعال السابقة ، أصبح وأمسى
وأضحى وحتى غدا ايضا ، فصارت من الافعال
الناقصة ، وهي في تلك الامثلة السابقة افعال تامة ،
والا لما دخلت واو الحال على ما ندعيه خبرا في
غيرها ، كما رأينا ، وكما في قول الفند المذكور :

فلما صرح الشر

فأمسى وهو عريان

بل ان « ليس » التي ادعي فيها النقصان دائما،
وردت تامة ، كما فى قول النابغة :

إذا ذهب العتاب فليس حب

ويبقى الحب ما بقي العتاب

وهذا مبحث آخر ستناوله عند تناولنا للغة
فى تراكيبها ، اما الآن فنحن بصدد مفرداتها

ومن الاستعانة بالزمان ، قولنا الغداء . لطعام
الغداة ، والعشاء لطعام العشاء

ثانيا - المكان : نقول : انجد فلان صار فى
نجد

واسهل صار فى سهل

وأجل صار فى جبل ، قال ابن حبوس الفاسي:

وتفجرت عين النباهة بعدما

قد كان خاطرها اكل وأجبل

اي انقطع ، والاصل فيه سعد فى الجبال
وأوقل فيها ، فانقطع خبره ، بل الوقل نفسه من
هذا ، فهو الحجارة ، وبذلك يكون من قبيل المكان

وانهم صار فى تهامة

وأيمن صار فى اليمن ، وكذلك ، يامن

وعرض صار فى العروض ، وهي مكة
والمدينة ، والطريق فى عرض الجبل ، قال عبد
يفسوث :

فيا راكبا اما عرضت قبلقا

ندامي من نجران الا تلاقيا

وهكذا استفادت العربية من الزمان ، كما
استفادت أيضا من المكان ، فقالت اعرق وبدا وتمدن
وغار وأبلد وأيمن وأشام وأجنب وأشمل وشرق
وغرب .

فمن نجد ، وغور قول الاعشى :

نبي يرى ما لا ترون وذكره

أغار لعمري فى البلاد وأنجدا

ومن العراق وتهامة وعمان ونجد أيضا ، قول
المزق العبدى :

فان تنهموا أنجد خلافا عليكم

وان تغمنوا مستحقي الحرب اعرق

ومن الشام ، قول الشاعر :

سمعت بنا قيل الوشاة فأصبحت

صرمت جبالك فى الخليط المشتم

ومن البداوة ، الحديث الشريف « من بدا
جفا » أي من سكن البادية اكتسب منها الجفاء

ومن المدينة ، قولهم تمدن فلان ، اذا سكن
المدينة .

ومن البلد ، قولهم أبلد بالمكان اتخذه بلدا

ومن الجنوب ، قولهم اجنب القوم ، اذا دخلوا
فى الجنوب
ومن الشمال ، قولهم : اشملوا ، اي دخلوا
الشمال .

ومن الشرق ، قولهم : شرق فلان ، اذا اخذ
فى ناحية الشرق .

ومن الغرب ، قولهم : غرب ، اذا اخذ فى ناحية
الغرب ، قال الشاعر فيها :

سارت مغربة وسرت مشرقا

شتان بين مشرق ومغرب

وبهذا نرى العربية قد استفادت من المكان ،
استفادتها من الزمان استفادة واسعة ، وهو ما لا نجده
فى غيرها أيضا كذلك فقد نجد فى الاسبانية من
الاندلس Andaluzada و Andalucismo
فالكلمة الاولى يراد بها المبالغات الاندلسية ، والثانية
اللهجة كذلك ومن قشطيلية Castilianizar ،
والمراد بها الاسلوب المنسوب لكستيليا بلقن للاجانب
عنها ، فلاشتقاق اذن حصل بعد النسبة لها ولا تكاد
نجد هذا الاشتقاق فى غير هاتين الناحيتين ، وطبعاً
لا يتوقع ان يوجد شيء من ذلك فى الانجليزية التى
تتحرك فى اشتقاقها بمساعدة فعل الكينونة ، ان لم
يكن هناك مصدر تعتمد عليه مباشرة ، وكذلك
الشان فى الالمانية والفارسية والتركية .

نعم ، قد سبق ان « Arrive » مأخوذ من
« River » ولكن قواميسهم فى Etymology تذكر ان
الانجليز اخذوا هذه من الفرنسية بعد اشتقاق الكلمة
فيها

حقيقة ان الاسبانية اشتقت من الطريق فقالت:
Caminar من Camino ولكن الملاحظ فى هذه
الحركة اكثر من الصيرورة فيه ، ولهذا لم تذكره

« الطويلة » باسم طمطم Tomtom وتسمية لعبة « البينكيونك Ping-pong و Croquet ربما تكون كلمة « التراكاتور » من هذا اقبيل . وعلى فرض انها مأخوذة من اللاتينية ، فان هذه قد حاكت الصوت . فيما سمت به قديما ، وقلدت في ذلك حديثا . قل لي طالب اسرائيلي ، كان يحضر علي درس الفارسية . اني ادركت تماما معنى كلمة « كرفتن » اي القبض والاستيلاء ، ولا شك ان ذلك كن في خفة وانتشال ، وهذا طبعا يفهمه الاسرائيلي اكثر من غيره .

الاساطير ، فنسمي طائرة من الطائرات ، مثلا ، باسم العنقاء ، أو آلة هتلة باسم الفول ، وقد فعلت هذا انجلترا فسمت الآلة الرافعة للانتقال العظيمة باسم Bogey ومعناه الفول ، واخيرا وجدنا اميركا تلجئ الى اساطير اليونان ، فتسمي باسم اله الشمس وغيرها Apollo ثم تستعين بالارقام بعد ، فيكون ابولو واحد واثنين الى خمسة عشر ، وهكذا دواليك ، وهي التي سمت طائرتها المدمرة Phantom اي ببعع .

وقد يلعب الخيال ، فيصور الاشياء وهي لا ترى ، بصورة ما ، كدائرة السوء ، أو يضفي عليها لونا ، كالحمي الصفراء والاسودين للتمر والماء أو يجعلها تصيب كنداء المجهول ، وهذا في الواقع من صنيع الشعراء ، واصحاب الخيال الخصب ، ولكنه اذا ما شعر صار يؤدي ما تؤديه الاسماء المعتادة فمن منا يجهد فهمه في ادراك « صوت الضمير » و « دائرة السوء » التي جاءت في القرآن الكريم ، وادركتها الافهام بلا كلفة أو مشقة ، كما ادركت « رؤوس الشياطين » وقد جاءت في القرآن ، وادركت « انياب اغوال » في شعر امرئ القيس :

ايقتلني والمشرقي مضاجعي
ومسنونة زرق. كانياب اغوال

وبعد هذا كله فللغة ان تخترع ، وهذا من علامة حيوتها واستجابتها الى كل ما يجد في الحياة ومتطلباتها ، وقد جاء الاسلام بجديد فاحتاجت اللغة الى جديد في اللغة ، فاخترعت الفاظا قرآنية ، لم يكن العرب يعرفونها ، وخصوصا فيما يتصل بالآخرة من تصوير احوالها وعذابها أو نعيم جناتها ، كالسلسيل ، والصعود ، وسقر ، وسجين ،

في هذه الظروف المكانية ، وبعبارة ان الطريق ، كان بعد الطروق ، فهو مأخوذ من الفعل لا الفعل مأخوذ منه ، ومادة الفعل اوسع منه فهو فعيل من الطرق بمعنى مفعول منه .

وبالجملة فالزمان والمكان لهما أهمية خاصة في العربية ، ولذلك الف المرزوقي الاصفهاني من رجال القرن الرابع واولائل الخامس كتابه القيم « الازمنة والامكنة » وكان استاذنا المستشرق Paul Kraus اذا سأل أحدنا عن هذا الكتاب ، فاجاب بأنه لا يعرفه ، ينحى عنه بالتجهيل والتقريع . لان مثل هذا الكتاب ، يجب ان يكون كل طالب في العربية على علم به واطلاع عليه .

ومهما يكن ، فانا زيادة على تلك الوسائل التي ذكرنا ، لنا وسائل اخرى نجعلها فيما يلي :

الالوان ، كتسمية نوع من الحيات ، باسم الاسود ، والتسمية بأحمر ثمود ، والاعتماد على اللون ، نجده حديثا في مثل البطاقة الرمادية والبطاقة الخضراء ، المعروقتين لكل سائق سيارة .

الاشكال ، كما هو معروف عند الموقتين ، في نحو نحو «الربع المجيب» و «الربع المقنطر» وعند اصحاب الهندسة ، كالربعات والمثلثات ونحوهما ، وقد تتعاون الالوان والاشكال والاصوات ، كما حصل هذا في « المربع الاحمر » لاصحاب زيت لوسيسور . وقد ذكر النحاة امثلة لذلك ، في نحو طاق للضرب ، وطق لوقع الحجر ، وغب لوقع السيف ، وساق حر ، لطائر ، قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق الاحماسة
دعت ساق حر ترحة وترنما

وقد وقف فقهاء اللغة عند هذه الكلمة وقفة طويلة ، يمللون اشتقاقها .

اما النحاة ، فمقدوا لهذا باب حكاية الاصوات ، كما ان اللغويين القدامى والمحدثين ، والفلاسفة في القديم ايضا ، استرعى نظرهم ذلك ، فكان منهم من ادعى ان الالفاظ اللغوية كلها ، انما نشأت حكاية للاصوات ، وهذا لا يعيننا ، ان كان صحيحا ام لا ، بقدر ما نستفيد منه ، وهو كائن في اللغة ، ويمكن الاستفادة منه ، وقد راينا في اللغات الحية ، شيئا من هذا ، كما في تسمية

وطوبى ، وغساق ، وغير هذه ، وان ادعى كونها
معربات .

وهذا ليس بدعا فى اللغات عامة ، وعندنا كلمة
Gaz تعيش فى كل مكان . ولا يعرف لها اصل البتة .

واذكر ان احدهم صنع شيئا ، فدخل عليه طفل
سأله عن اسم المصنوع . فسأله هذا الصانع : كيف
تسميه ؟ قال له . كذا ، فسماه بذلك . ولم يكن
لذلك الاسم اصل من اللغة ، وقد وضع احدهم
رسوما متكررة . على شكل زوايا حادة متسلسلة ،
ودعاها « كيكريكو » ورسم الى جانبه رسما آخر .
عبارة عن سلسلة من انصاف دوائر ودعاها « امبو »
ولكنه وضع الاسمين ، ودعا تلاميذ من مختلف
الجنسيات واللغات وسألهم : اي الرسميين
« كيكريكو » فكلهم اجاب بأنه صاحب الزوايا الحادة
ولا شك انهم يدركون العلاقة بين تتره مك التركية
والاضطراب و trouble والواقع ان الرسم له
صلة بما يعرف عند الرسامين ، باسم « كروكي » .
واعرف سيدة اخترعت كلمة « زوطوطو » فسارت
الكلمة فى الوسط العائلي ومن الكلمات المخترعة
كلمة « روكوكو » Rococo وهو من اسماء
الزخارف ، وكلمة « كوداك » Kodak .

ولا شك ان هذه الكلمات ، سيزداد عليها . ولن
تقف مكتوفة ، بل سيشتق منها فيما بعد ، شأنها
شان باقى الكلمات فى العربية . سأل الضيف صاحب
المنزل عن طعام ، قد أتى عليه ، فأغاظ صاحب المنزل
الاب الفقير ، ما اسم هذا الطعام ؟ فاجابه بفيض :
« الكجدور » فقال له : « على شى ما كجدرتوشى منو
بزاف ؟ » وهكذا اشتق من الكلمة القريبة عليه ، بمجرد
فهم مدلولها ، كما اعتقد ، وهي طبيعة العربية الام
الولود ، التى تمكن اولادها من حرية التصرف ،
فيشتقون من « الاستيك » ، فعل « استك » وغيره ،
كما يشتقون من da le المركبة فى الإسبانية من
فعل أمر من صدر dar اي الاعطاء ، والمفعول
فكان التعبير dale اي اعطه ، ولكننا قلنا دالا
عليه ويدالي الى غير ذلك من كل ما يدخل الى
العربية من كلمات لها اصولها او مخترعة لا اصول
لها ، كما تقدمت امثلة له .

وبعدما تعرضنا للتعريب فى مفهومه القديم
والحديث والوسائل التى تمكننا من سد الحاجة التى
نشعر بها حيال هذا العصر واختراعاته المتلاحقة ،
وما تتطلبه حضاراته المختلفة .

تلقي النظرة الاخيرة على ميدان التعريب ،
يكون بهذا تلخيص ما تقدم وتبسط بعض الجوانب
منه ، بأمثلة منها ما يعايشنا ويسايرنا فى ثقافتنا
اليومية ، ونحن فى مضمار الحياة ومعترك
الاحداث .

ولا شك ان اماننا مشاكل متنوعة فى هذا
المضمار وذلك المعترك . فهناك العامية ، التى يجب
ان نأخذ بيدها ونسمو بها الى مستوى راق . بدل ان
ننزل اليها من هذا المستوى الراقى ، وهناك الفن
ومذاهبه ، كما قيل ، فهو يصور الحياة فى لوحاته
الزاهية والشاحبة والقائمة ، برسومه وموسيقاه ،
التي أصبحت تتطور مع الايام بأدواتها واصداها ،
التي جالب ذلك الرسم الذى لا يقتصر على المشاهد ،
بل أصبح يجاذب الكتابة ويرقى الى الرموز ، التى قد
تعجز عنها الكتابة نفسها ، فهو يسبح فى عوالم خارقة
للعادات وهو يخاطب او يحاول ان يخاطب وجدانات ،
بلفات لا تقوى عليها الكتابات والاصوات ، فهو حر
طليق لا يعترف حتى بسلطان النفسيات والمسجلات
للخبرات الرتبية ، فى سهولة تراد منه او اسلاس
ينقاد به ، انها الثورة التى يريدها الخيال الجامح
فى اعلانها المكسرة لاصنامها . وهناك النحت ، لا يقل
فى غاياته عن غابات الرسم ، وان كان طريقه وعرا ،
تكتنفه الصخور عليه ان ينحت منها ، والاحوال عليه
ان يفوض فيها فهو على رعونته ، أصبح لا يقل عما
عليه الرسم فى اطيافه واحلامه ، ووداعته وثوراته .

وهناك الكلام ، وهما كما يقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والفؤاد هذا قلب قلب ، يقبله من هو كل يوم
فى شأن ، فعلى اللغة ان تسجل خطراته ، وان تضبط
دقاته ، وهي كما قال شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له

ان الحياة دقائق وثوان

نعم ، انها دقائق وثوان ، ولكن هذه الدقائق
والثواني ، ما اعظم متطلباتها ، وما اشد ما يتحمل
الانسان من اماناتها ، وقد أبت السماوات والارض
والجبال ان يحملن هذه الامانات ، كما قال تعالى
« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال
فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه

ويطبق على ذلك قواعد ما يشبه علمه . كما عليه ان
يخترع اسما جديدا لهذا العلم ، والكيمائي عليه ان
يحلل عناصر ما في هذا الكون او الاكوان ، ويسمى
تلك العناصر بما يخترع لها من اسماء ، لان المدلولات
قد تكون غريبة عن هذا الكون ، وليس لهؤلاء ان
يقولوا للمرائس تلك الافلاك :

صوني جمالك عنا اثنا بشر
من التراب وهذا الجسم روحاني
او فابتغي فلكا تأوينه ملكا
لم يتخذ شركا في العالم الفاني

لان هذه المرائس تأوي فعلا هذه الافلاك فلم
تتخذ لها شركا في عالم غير عوالمها ، ولكن الانسان
هناك استارها وكشف خدورها فتجأت مفاتنها
للإبصار ، وانبهرت لاسرارها البصائر ، فلا اقل للغة
من الوصف ولا مناص لها من الكشف ، بكل دقة وكل
تبيان .

ان هذا الاكتشاف الذي ستلوه اكتشافات ،
قد تطب آلاف الآلات والادوات ، فعلى اللغة ان
تسمي كل ذلك بدقة وتفهمه للفهام وليس بقادر على
هذا الا اهل العلم انفسهم ، وقد وضعت اللغة امامهم
وبين ايديهم ما تملك من ادوات التعبير ، ووسائله
كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز وكالتشبيه وحكاية
الاصوات والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة
من اللغات بعضها من بعض وكالاختراع للكلمات
وخلقها من العدم ، اذا لم نجد في هذا الوجود ما
نستفيد من لونه او شكله او رائحته او حركته او ما
الى ذلك او مما يسعفنا بمماثلة ما ولو في الوهم او
الخيال الذي يساورنا او يخلف لنا من اساطيره
وخرافاته .

لقد سمي آباؤنا سائل الكلونيا ، باسم «مسيكو»
فاسمعتهم الرائحة ، واخترع « شيكبير » اسم
« دولار » قبل ان يكون دولار وسمى آباؤنا ايضا
الدراجة ، باسم « عود الريح » معتمدين على
السرعة في الحركة ، وكان هذا تلقائيا منهم ووفقوا
كل التوفيق (وفي الفارسية « دوجرخه » اي
فلكتان) اذن فالعزم اولا هو ما نتذرع به ، في
مواجهة التعريب ، وفي القديم واجه القوم ، فما
وهنوا ولا ضعفوا ، وحلوا مشاكلهم في تدوين
الدواوين ، ونقل العلوم المختلفة والاداب المتباينة
والعقائد المتضاربة الى لغة الضاد ، ولم يكن اولئك
اقدر منا في العربية ولا افهم منا لتلك العلوم

من ظلوما جهولا » هو ظلوم عليه ان ينصف نفسه
وينصف اناس . وهو جهول عليه ان يعلم ويتعلم ما
ينبي رغبات الافئدة في هوائها . والعقول في مناطها ،
والاجسام في علها واسقامها ، وصحتها وملاذها .
من المشاهد والاذواق والمشاعر والاسماع .

فهذا فن الكلام في آدابه ، التي تتولد وتتفاعل
في الوانها وامشاجها ومعطياتها ومقاصدها ، وجميعها
في تطور مطرد وفي انفصال هلامي مستمر . وفي
استقلال ببيء اصحابها واطنانها ومجتمعاتها وافكارها
وثقافتها ، بعد اللغات ، وقد اصبحت تعد بالآلاف .
واسبح على الانسان ان يفهم كل شيء ، وقد واجه في
حياته كل شيء ، فخيتم عليه الظلال من كل مكان ،
ووجهت عليه الانوار والنيران ، فعلى هذه اللغة ان
تسمد بكل شجاعة ، وعليها ان تقوم برسالتها ، بكل
عزم وقوة ، فتمثل دورها في جميع المحافل خير تمثيل
ان كانت على قيد الحياة .

ومن وراء هذا كله الفلسفة التي اصبحت من
هذا الجيل مطالبة بالجديد ، والا فعليها ان تنزوي
من مسرح الحياة الجديد في جميع فروعها ، حتى
« الميتافيزيقا » نفسها ، فمهماتها صعبة في هذا
العالم الصعب المعقد ، الذي لا يرحم احدا ولا يحجم
عن الاخذ بتلابيب العلماء العظام والفلاسفة الكبار ،
فعلهم ان يفهموا ويبسطوا وعليهم ان يقنعوا العقول
وهي في زيفاتها وصراعاها للايكترونية العملاق .

وهذا العلم لم يبق بالرتابة او القداسة التي
كان عليها ، فهو يطارد مطاردة لا هوادة فيها ، منذ
بداية هذا القرن ، واشتدت المطاردة اثناء الحرب
الاخيرة ، وازدادت اشتدادا بعدها ، وصارت
الدنيا تמיד بها ، واذا بالافلاك والنيران تناجي
الانسان فيطالب العالم بأن يحمله الى هذه الكواكب
والافلاك ، فلا يجد المسكين مناصا من ان يستجيب
لمطالب الانسان الجبار ، فيبني له المراكب الفضائية
ويزوده فيها بما يضمن له السلامة ولا يحرمه مع هذا
من الاتصال بالعالم الارضي لحظة ، ويتكفل بالعودة
به اليه بعد ان يحط رحاله بتلك الكواكب ويطوف
في ارجائها ويحمل من متاعها ويستعمر من بقاعها ،
فلا يلبث بعد عودته ان يطالب العلم بدراسة هذه
العوالم العليا .

فالجغرافي عليه ان يخترع ما يشبه علمه لهذه
الكواكب ، بل عليه ان يخترع اسما خاصا لهذا العلم ،
والجيولوجي عليه ان يدرس طبقات هذه الكواكب ،

والفارسية ثم التركية سمت الهيدروجين « مولد الماء » كما تقدم ، واستعملت التركية « تهاكة » بدل « خطر » ، والاسبانية « انبوب » Embubo بدل قمع . وهكذا نجد الفاظ نستفيد من وجودها في الخارج او نختارها منه .

وهذا عمل يحتاج الى تعبئة عامة ، وكفاح يشارك فيه الجميع : الحكومة بتدخلها في تعريب انلافتات والتذاكر واللوائح والصحافة باختيار الكتب والمثقفين حقا والمتخصصين في العربية تخصصا عميقا . فلا تترك الصحافة في ايدي من لا يحسن لغتها من المتطفلين عليها ، والممثل المسرحي كذلك له رسالة في هذا التعريب ، فعليه ان يختار الموضوعات التي يستضيفها الشعب حتى يقبل عليها في لغتها ، فتعمل فيه بطريق الإيحاء ، وكذلك التمثيل الخيالي ومسرحه في الواقع أفسح من غيره ، والأغاني العربية وحتى الشعبية تخدم كذلك التعريب ، اذا احسنا استعمالها واخترنا اصواتها الجميلة والحنان السجية واعدناها بالموسيقى العذبة المؤثرة والاذاعة والتلفزة من اقوى دعائم هذه التعريب ، فهي الصوت الذي يصحبنا ويمسنا والمشهد الذي تحيينا وتسامرنا وتناجينا .

اما المدرسة والكتاب فغني امرهما عن البيان ، ولا بد من الاستمرار والتذكير ، فقد كنت كتبت في كون العمالة بالكسر ، فكان لهذا صده في اذاعة تطوان وفاس ولكن التذكير بهذا انقطع فعاد الناس الى العمالة بالفتح وعدت انا معهم الى هذا الضلال على علم به مني .

واخيرا ، لقد تركنا المفردات وما يمكن ان يستفيد منه التعريب في حركته الدأبة بنشاط هذه الاحياء البشرية وبقي علينا ان نوجه العناية الى المفردات في تركيبها ، او تعريب الاساليب ، ان صح هذا التعريب .

وموقفنا هاهنا لن يطول ، لانه لن يكون معربا بحق وحقيقة ، فالعربية قد انتهت الى تراكيبها ، وليس في الامكان ابداع مما كان في بنيتها ، وارتفعت الاقلام عن تسطيرها وجفت الصحف بما فيها .

الا ان هناك ، جوانب لا تمت الى الخلق والابداع من جديد ، بل هي في الواقع محافظة على ذلك الكيان اللغوي الذي هو بالنسبة اليها القلعة المتينة والحصن الحصين ، الذي يجب الدفاع عنه الى آخر قطرة من دماء هذه اللغة الالهية المستمينة الصامدة .

والاداب وغيرها ، بل كانوا دوننا في ذلك ولا شك ، الا انهم كانوا يتوفرون على شيء لا تتوفر عليه ، وهو الشعور بالهزة والكرامة وانهم سادة يجب ان يخضعوا لهم ، لا ان يخضعوا لغيرهم ، وبذلك اخضعوا لانفسهم ، في يسر ، كل ما وصلوا اليه او اتصل بهم .

هذا هو موقفنا الذي يجب ان نتفقه ازاء هذا التعريب ، وهو موقف : لا محالة . يدعو الى التخصص . بعد تلك العزيمة ، وإلى النهل من العربية والتعمق فيها . حتى يمكن كل عالم او صانع او مفكر او متفلسف ، ان يتولى ما يزاوله او يعانیه بالتعريب .

وعليه ، فالطبيب يتولى تعريب ما يتصل بطبه . والمهندس يتولى ما يتصل بهندسته ، والمتفلسف والفن ، كل لما يتصل بهأويته والصانع كذلك يعرب ما يتصل بصناعته ، وقد مكناه من ذلك بالتعليم ، الذي يسير في ركبته هذا التعريب .

ولا نهمل مع هذا استشارة الشعب ، بل نعود الى قاموسه الحي ، الذي يمدنا بنحو « عود الريح » و « ميكو » و « والصدفة » و « الكسكاس » و « غويلة » و « ترابية » ، وغير هذه من الكلمات التي تخضع للعربية وقوانينها ، كما نتلقى منهم من غير مشقة ما عربوه هم مثل يكمي ، من Quemar الاسبانية والكرو من Cigarro الاسبانية ايضا الا اننا نخضع الكلمة لقانون العربية ، فلا نتركها لتنها هذا ، وفي آخرها واو قبائها ضمة لازمة ، بل تختتم بهاء مثلا ، كما فعلنا في ينيه ويلييه وسبوييه ، وسميت الصورة السالبة باسم « عقرية » في عامة الشرق ، فلنا ان نستعير حتى من العامية .

كما نستعين برصيدنا في الخارج فالاسبانية اخذت كلمة « كحال » Oculista لطبيب العيون وعنها اخذتها باقي اللغات الاوربية كما اخذتها مباشرة الفارسية فالتركية . فلماذا لا نستعملها نحن العرب فنجاري اللغات الحية التي استعارت منا ولنا الفضل عليهم ؟ ربما نائف من هذا ، فلم لم يائف غيرنا ان يسموا طبيب الانسان بالسنّي Dentiste كما في اللغات الاوربية والتركية ؟ وعلينا ان نجاري غيرنا في ذلك ، وقد استعملت هذه التسمية « دنثيلة » في الاندلس وان كانت في الاحتفال يبدو الانسان ، وادعى بعضهم ان لها أصلا في الفصحى ، وتوقف الزبيدي هنا .

ان العربية كما قلنا ، كريمة كأصحابها مضياف
تكرم نزلاءها ، فوجود مائات او آلاف من الكلمات
الدخيلة فيها لا يهدد حوزتها ، بل بالعكس يزيد
قوة ويكسبها منعة ، فى مواجهات كل الطواريء .

ولكن العبث بالنظام المتبع فيها ، واحداث
الفوضى فى مجتمعها ، هو الذى لا يقبله بحال . وهو
الذى يجب الا تقبله ، كما لا يقبله اى عرف من
اعراف اللغات قاطبة ، وهي لغات لها كرامتها ونها
وجودها الازلي والخالد خلود الدهر .

ونعود فنقول ، اننا لن نطيل فى هذا التعريب
التركيبى . وسنقف وقفة قصيرة : عند بعض
الاعراض ولا نقول الامراض التى طرات على هذه
العربية فى عصرنا المريض برجاله ومثله العليا .

فاول تلك الاعراض ، بل اول تلك الامراض ،
مع المذلة ، مرض حل بمستقبل هذه اللغة ، نعم ،
حل بمستقبلها مع الاسف ، ولكنه حل بمستقبلها
السلبى ، لا الايجابى ، احسن الحظ ، والله الحمد
على كل حال .

من المعلوم ، ان الافعال فى اللغات ، هي مفاتيح
تلك اللغات ، بل هي حياتها التى بها يكون حيوانها ،
والحيوان فى الواقع ، ما هو الا الحركة الجياشة ،
كالفيضان والغليان والثوران والجيشان نفسه ، وبهذا
الاعتبار ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي
الحيوان لو كانوا يعلمون » وبذلك تكون هذه الكلمة
فى مدلولها الآن قد انحرفت عما خلقت لاجله .

وهذا لا يهمنى الآن ، فقد انتهينا من المفردات ،
كما قلنا وعلينا ان نعالج مستقبل هذه اللغة فى افعالها
السلبية ، وهي التى تحتاج الى علاج ناجع وسريع .

نقول سوف نفعل ، كما نقول سنفعل ، وهذا
الاخير مختزل من الاول ، وكان قد عمل فيه هذا
الاختزال ، ف قيل سو افعل ، وسف افعل ، واخيرا
سافعل ، فوقع الاختصار على حرف السين
وحده ، واهمل الاختصار عليه مع الواو او الفاء ،
وحفظ على الام الرؤوم « سوف افعل » وهذا
جميل فى هذه العربية التى تتجدد وتتطور ، ولكنها
لا تتنكر للماضى ، ولا تعق الامومة والابوة .

هذا هو الفعل المستقبل الموجب فى العربية ،
سلمه الله من كل بلاء ، ودرا عنه كل اداء ، فبقى
كيوم ولدته امه على فراش الصون والعفاف

ولكن المستقبل المنفي وقع فيه من المصائب ما
لا عين رأت ولا اذن سمعت بمثله فى غير هذه اللغة
الشريفة نسمع دائما ونقرأ دائما ، وخصوصا فى
صحافتنا المسكينة هذا التعبير :

« سوف لا يأتي فلان » ونسمع ونقرأ فى
صحافتنا المنكوبة ، ما هو افظع من هذا وادهى ...
نسمع ونقرأ :

« سوف لن يأتي فلان » ، ، فض الله فم من
كان اول الناطقين ، بتلك العبارة المسوخة ، وهذه
العبارة الملعونة من السماء ، لان الله ما انزل بها
من سلطان ، ولان كتابه الكريم قال : « لن تراني ولكن
انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني »
فعلمنا كيف نعبر بالمستقبل المنفي « لن تراني » وقابل
به المستقبل المثبت « فسوف تراني » .

اذن فاداة الاستقبال فى الفعل العربي المنفي ،
هي الاداة « لن » فنقول « لن يسافر فلان » فى
المستقبل من الزمان ، ولا نقول « سوف لا يسافر » ،
ومن المخجل ان تستعمل هذه العبارة ، فى التمثيلية
التي جابت من مصر فعرضت فى تلفرتنا بمناسبة
المولد الشريف ، وهي تحكي حوارا كان على عهد
الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وافظع من هذه العبارة ، هو « سوف لن
يسافر » ، فتلك جهالة جهلاء ، وعدم اكتراث باللغة ،
التي ظن اصحابها اليوم ، كانهم قيل لهم فيها :
« تكلموا كيف شئتم » ، وصدق الشاعر :

رايت الحلم دل علي قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

ان مثل هذا التعبير انما هو استعمار انجليزي
تعدى الى اللغة بعد ان اعتدى على اصحابها ، وما
ابغضه من استعمار ، تخلص منه الناس ، ولم يتخلصوا
من ادوائه العديدة ، التى منها هذا الداء الوبيل ، فقد
تلقى احد الكتاب الطفيليين ، وما اكثرهم واسمجهم ،
مثل هذ التعبير الانجليزي I shall not come فقد
عليه عربيته المعذبة ، فى قبضته الاثيمة ، فقال :
« انا سوف لا آتي » او « سوف لن آتي » ولو آمن
جدا فى التعبير الذى سحره ، لقال : « انا سوف لا
آتيان » هكذا ، وهو تركيب لا يوجد الا فى
الانجليزية والالمانية بهذا النسخ وهذا الترتيب ، ولا
نعرف له مثيلا فى لغة اخرى غيرهما ، وهكذا نجد

العبارة المذكورة . تكون في الالمانية

ich werde nicht kommen

سواء بسواء ، فتجعل أداة النفي تالية لأداة الاستقبال ، كما في الإنجليزية وفي تعبيرنا هذا المسوخ « سوف لا » أو « سوف لن » كما تقدم ، بينما الفارسية تدخل أداة النفي على أداة الاستقبال ، ولا تجعلها تالية لها ، فتقول في نفس الجملة « من نخواهم آمد » فالتون نفي وتخالف هذه جميعا التركية ، التي تأتي بالمصدر المرحم وتلحق به أداة النفي ، ثم تأتي أداة الاستقبال فتقول « بن كله ميه جفم » ويبقى بعد هذا اللغات المتفرعة من اللاتينية ، كالاسبانية ، فانها تأتي بأداة النفي ثم المصدر المرحم ثم أداة الاستقبال Yo no vendre

وبلاحظ أن هذه اللغات - ما عدا الإنجليزية - تصل ضمائر الفواعل أو علاماتها ، بأداة الاستقبال ، وانها جميعا تستعين بالمصادر ، في صوغ فعل الاستقبال ، إلا أن الإنجليزية وليس لها مصدر غير مؤول ، تحذف الحرف الموصولي v ، والالمانية تأتي بالمصدر كما هو ، بينما الفارسية والتركية والاسبانية ترخم هذا المصدر عموما .

ثم انها تتحد في كونها لها أداة تدخل عليها أو تلحق بها أداة النفي ، وهي واحدة إلا في الإنجليزية ، فتختلف بحسب التكلم وغيره ، فهي للتكلم كما رأينا shall ولغيره will وقد يتبادلان قصد التأكيد كما يقول شيلي Our breath shall intermix وربما استعمل هذا الفعل في معناه الاصلي ، إذ لا مهمة له في الاستقبال « We shall become the same. We shall be one spirit »

وكذلك العربية لها أداتان ، واحدة في الإثبات ، وهي « سوف » أو ما اختزل منها ، وواحدة في النفي وهي « لن » لا غيرها .

ولعل « سوف » كانت ظرف زمان في أصلها ، بنيت على الفتح للازمتها الظرفية ، وإن كان المستشرق Bergstraesse يرى أنها مستعارة من الآرامية Saupa ومعنى هذه « النهاية » أو « الغاية » ، فكان معنى « سوف أفعل » أي أفعل في النهاية والغاية .

يقول علماء اللسان ، أن اللغات السامية - ما عدا الأكادية منها - ليس لها الأزمان ، ماضى قبل انتهى ، وغيره لم ينته ويشمل الأمر والحال والاستقبال .

فكون العربية استعانت بسوف ظرف زمان ، أو saupa الآرامية على تعيين مستقبلها ، هذا شيء ليس بغريب في اللغات فالإنجليزية ، في غير التكلم خاصة ، والفارسية عموما ، استعانت بفعل الإرادة ، الذي ما زال بهما يستقل بنفسه أحيانا ، فكان الأصل في « سيفعل » مثلا هكذا « يريد الفعل » وفي التكلم استعانت الإنجليزية ، بكون الفعل ملزما ، فكان الأصل « سأفعل » هكذا « يلزمني الفعل » فهو الفاعل على الحقيقة ، وفي الالمانية استعين بفعل أصبح ، فكان الأصل في التعبير السابق هكذا « أنا لا أصبح أتينا » ويستعمل كذلك مستقلا وهذه الاستعانة نجدها في نحو « غادي » أو « ماشي » أو « خصني » أو « نحب » التي تستعمل بالعامية كما يستعمل الرواح والود بالشرق

وليس لنا أداة لا تؤدي إلا هذا الاستقبال المجرد ، سوى الاداة التركية والاداة الاسبانية الآتية من اللاتينية في غير العامية هذه مقارنات في سوف مثبتة في العربية ، ومطلقة في غيرها .

وبقيت « لن » فما أصلها ؟

اختلف فيها ، فمنهم من يراها خلقت كذلك ، ومنهم من يرى أن التون ، حلت محل الالف من « لا » للتأكيد ، ومنهم من يرى أن أصلها « لا أن » فكان الأصل في « فلان لن يفعل » فلان لا أن يفعل ، فهي تفهم كون فعل لن يقع في الاستقبال .

ومهما يكن فجميع هذه اللغات - ما عدا التركية - استعملت التون للنفي هنا ، أما التركية فالميم وهي أخت التون التي طفت عليها تماما بالفارسية .. والنتيجة أن الفعل المستقبل في العربية ، إذا نفي يكون بلن وحدها ، كما قال الشاعر :

هي الشمس مطلعها في السما
فعر الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصمودا
وان تستطيع اليك النزولا

ومن قبل بثلاث وعشرين سنة كتبت في أداة الاستقبال ، فاهتمت بذلك مجلة الروس البيض بتونس وأبدته في مجلتها « Ibla »